

مسيحيو لبنان: الهموم والمهمات

نبيل خليفة *

تستعد الكنيسة المارونية لعقد "المجمع البطريركي الماروني" ابتداء من حزيران المقبل 2003 وكان آخر مجمع ماروني قد عقد عام 1856 في عهد البطريرك بولس مسعد. وتأتي هذه الدعوة في سياق اربع مستلزمات Exigence اساسية - تاريخية تواجه المسيحيين في الشرق:

1- تجديد الكنيسة على مطل الألفية الثالثة على ضوء المجمع الفاتيكاني الثاني والارشاد الرسولي ووضعية المسيحيين.

2- استيعاب مفاعيل حرب لبنان وتداعياتها "على البشر والحجر..." كيانا... ومكونات!

3- التعامل بوعي مع تنامي الصحوة الاسلامية في لبنان والعالمين العربي والاسلامي.

4- تجنب انعكاسات الحرب الاسرائيلية (في فلسطين) والحرب الأميركية (في العراق) على مجمل المسيحيين في الشرق في ما اذا صنفتها البعض "حربا صليبية"!

هذه الوضعية الدقيقة تطرح على ضمير جميع المسيحيين اللبنانيين وعقولهم وقلوبهم، ولاسيما على الشبيبة المسيحية، تحديات على صعد عدة وفي أكثر من مجال لا بد من مواجهتها وإيجاد الاجوبة الصحيحة عليها. ان هذه الورقة الموجهة بشكل خاص الى الشباب المسيحي تشكل مجرد عناوين عامة يجدر بالشباب التأمل والتعمق والبحث فيها بوعي ومسؤولية تاريخية لصياغة هذه الاجوبة المناسبة القادرة على احتواء (وربما الغاء) هواجس (1) المسيحيين، بل لنقل همومهم (2) وتحديد المهمات (3) التي يفترض بالمسيحيين (كنيسة وجماعة وافرادا) الاضطلاع بها على مستوى المرحلة.

اولا: في هموم المسيحيين

يحمل المسيحيون اللبنانيون، مثلهم المسيحيون الشرقيون، هموما عدة نشير بايجاز الى ستة منها:

1- هم الحرية (4): "ان المسيح قد حررنا" يقول الرسول بولس (غل:5:1)، وهذه الحرية تجد افضل واكمل تعبير معاصر عنها في الاعلان العالمي لحقوق الانسان. وليس من باب الصدفة ان يكون اللبناني المسيحي شارل مالك احد ابرز واضعي هذا الاعلان. فهي من حرية الايمان... الى حرية الضمير وما بينهما من حريات فكرية وسياسية واجتماعية وما يستتبعهما من تعميم "ثقافة الحرية": حرية الشخص وحرية الجماعة. على ان الحرية ليست معطى جاهزا بل عادة ما تكون "حائطا لا بد من تدميره او حقا لا بد من الاستيلاء عليه".

2- هم العيش: هو هم الخبز والعمل لبناء العائلة وتأمين مصالح الجماعة والمجتمع وتجويد الحياة. واذ يتعدى ذلك تحدث الهجرة الى مختلف اصقاع الارض في ما عرف بالدياسبورا اللبنانية (بغالبيتها المسيحية) حيث تعمل وتنتج وتتفوق، وتعود او تبقى حيث هي.

3- هم الارض: هو انعكاس للهمم السابقين. ان لاهوت السماء لا يستغني عن لاهوت الارض. ذلك ان كنيسة لا جغرافيا لها لا تاريخ لها. ولعل الهم الاكبر للكنائس المسيحية في لبنان ولاسيما الكنيسة المارونية هو في القدرة على الجمع والمألفة بين حيزاتها Espaces الاربعة: نقطتها المركزية في لبنان ومن ثم دوائرها الانطاكية والعربية والعالمية حيث ينتشر عالم الاغتراب اذ يطرح عامل الاتساع الجغرافي - الثقافي، فيها وعليها، معضلة الانتماء والهوية.

4- هم انجاح تجربة الحياة المشتركة (المسيحية - الاسلامية) وخصوصا في زمن الصحوة الاسلامية. وذلك في اطار دولة لبنانية مدنية، ترتكز على ثلاثة (خارج رهاني الانفصال والانصهار):

- احترام القيم الدينية من دون استثناء.

- القبول بمبدأ التعددية الثقافية لكل الجماعات وبانعكاساتها على الحياة العامة ضمن قاعدتي التوازن والانصاف.

- المحافظة على سيادة الدولة اللبنانية واستقلالها ووحدتها السياسية وقرارها الحر في اطار التضامن مع المحيط العربي.

5- هم الحضور المسيحي، اذ يعيش مسيحيو الشرق تجربتين: التجربة الحرة في لبنان والتجربة الذمية في بقية الدول العربية (بنسبة او باخرى). هذا الواقع يجعل مسيحيي لبنان قبلة مسيحيي الشرق ويجعل من همومهم هموما كيانية (لهم ولغيرهم): في ان ينجحوا ويظلوا احرارا كأشخاص وكمجماعات يتأثر بهم ويلوذ بهم بقية المسيحيين الشرقيين.

6- هم المألفة بين التأصل في التراث والانفتاح على الحداثة، بين المحدود والمطلق، بين اللبنانية والكونية. لكأن هذا الهم يعكس الثنائية اللبنانية بين الجبل (المحدودية في الحرية) والبحر (الاتساع والمدى في الانفتاح على العالم) كما شرحها المفكر اللبناني الكبير ميشال شيجا.

هذه عينة من الهموم الكبرى التي شغلت (والتي تشغل) افكار المسيحيين اللبنانيين خلال تجاربهم التاريخية على امتداد قرون في هذه المنطقة من العالم. وهي هموم تزداد راهنية وتأوينا Actualisation بازدياد هجرة المسيحيين وصعود التيارات الاسلامية الاصولية وانفجار الصراع بين دول عربية ودول عربية واسلامية، ولاسيما تجويف الدولة اللبنانية من مرتكزاتها الاساسية.

فما هي المهمات الملقة على عاتق مسيحيي لبنان؟

ثانيا: في مهمات المسيحيين

ان مهمات المسيحيين اللبنانيين تتصل حكما بهمومهم. انها الاجابات على السؤال: ما العمل لمعالجة مثل هذه الهموم؟ وهي اجابات قد تتعدد وتتنوع وتختلف وفي بعض الاحيان تتناقض. ويمكن اختصار هذه المهمات بستة عناوين (كل واحد منها يشكل موضوعا للتأمل والمعالجة):

1- المحافظة على القيم المسيحية وعيشها روحيا واجتماعيا وسياسيا. ومن اشهرها: المحبة والايمان والرجاء وكرامة الانسان والخير العام وصون السلام واعتبار الحقيقة قاعدة للحرية والعدالة.

2- التمسك بهويتهم اللبنانية المسيحية الانطاكية في بعديها البطرسي والبولسي وفي رمزها الجغرافي الانطاكي. واذ يكتسبون هويات جديدة بفعل تجارب الحياة في المغتربات وبفعل مرور الزمن، فليبق في اذهانهم ان لبنان هو... ارض ميعادهم... لأنه مقر كنيستهم، ورمز وجودهم الحر.

3- التمسك بلبنان الكبير قاعدة للوجود المسيحي الحر، وللحضور المسيحي الحر الضامن هذا الوجود، وللانسان اللبناني الحر المتفاعل مع هذه القاعدة. فلبنان الكبير هو وطن للمسيحيين ولكنه ليس وطنا مسيحيا. وهم ارادوه كذلك وعملوا له كذلك لأنه مساحة الحرية التي يعيشون فيها حريتهم ونمط حياتهم.

4- الدفاع عن فلسفة الحياة المسيحية - الاسلامية المشتركة، وارساؤها على اسس صحيحة وسليمة ومتطورة تتخذ من مبدأ التضامن المسيحي - الاسلامي هدفا لها ومن الحوار المسيحي الاسلامي وسيلة لها. ومن المهمات الكبرى لهذه الفلسفة تحويل ما هو حتمي وقديري في وجوب العيش المسيحي - الاسلامي المشترك بفعل الجغرافيا، الى موقف فلسفي اختياري قائم على قبول الجانبين بمبدأ الحياة المشتركة والقبول ببناء دولة مشتركة يحكمها القانون المدني: دولة متعددة ثقافيا موحدة سياسيا.

5- جعل لبنان - الرسالة منطلقا ومختبرا لهذه الفلسفة بما يخدم حوار الثقافات، وبالتالي العلاقات المسيحية - الاسلامية في لبنان والعالم العربي وجميع انحاء العالم.

6- الاندماج (insertion) في الثقافة العربية لاغنائها وتطويرها باتجاه الحداثة والنهضة دون التخلي عن الاصلية. نحن اذن امام مهمة النهضة الثالثة (بعد النهضة الاولى في العصر العباسي والثانية في العصر الحديث).

باختصار، ان الحياة المشتركة، وهي بيت القصيد، لا تتم بالاكره بل تبدأ بالرغبة لدى الجانبين، ومن ثم بمعرفة الآخر وبقراءة التاريخ بكلية، التاريخ المشترك مع ما فيه من اختلافات وخلافات. وهذه القراءة الموضوعية الشاملة التي تقبل الماضي بكل مساوئه وتخطط للمستقبل المشترك بكل تطلعاته، هي الدليل الوحيد والمدخل الوحيد لتأكيد الرغبة في الحياة المشتركة. فعندما نقوم نحن (مسيحيين ومسلمين) برسم ملامح تاريخنا المستقبلي المشترك نكون قد اسقطنا عنه ومنه كل عناصر الارتياح بما فيها من غموض وخوف ونيات مبيتة!

ثالثا: المحطات المفصلية الست في تاريخ المسيحيين اللبنانيين الحديث

ان الهموم والمهمات التي ذكرنا (في النقطتين السابقتين) تقاطعت وتواجهت وتحققت او فشلت كليا او جزئيا في ست محطات مفصلية طبعت تاريخ المسيحيين اللبنانيين الحديث. وهي محطات لا بد للشباب خاصة وللاهوتيين والفلاسفة والمؤرخين والسياسيين ورجال الفكر الاجتماعي من اعادة قراءتها والتعمق والتأمل في كل واحدة منها لكي، في ضوء ذلك، تكون لنا رؤية اكثر صفاء ووضوحا للبنان، لبنان الانسان، لبنان الحياة المشتركة، لبنان الدولة والكيان.

وهذه المحطات الست هي:

1- قيام المتصرفية بعد بروتوكول 1861 كأول نواة صلبة للوجود السياسي المسيحي في الشرق، بل النواة التي كانت في اساس قيام لبنان الكبير عام 1920.

2- نشوء لبنان الكبير عام 1920 الذي اعتبر بحق انتصارا تاريخيا ونهائيا لانه يجسد تطلعات الجماعات المسيحية واشواقها منذ مئات

السنين في ان تتمكن من العيش بحرية داخل كيان سياسي يكون لها فيه حضور وكلمة.

3- الميثاق الوطني عام 1943 باعتباره ارقى صيغة للحياة المسيحية - الاسلامية المشتركة في حينه، وقد ارتباط هذا الميثاق باسم شخصيتين بارزتين طبعتا تاريخ لبنان الحديث: الرئيس بشارة الخوري والسيد رياض الصلح.

4- اتفاق الطائف عام 1989 الذي ارسى وثيقة جديدة للوفاق الوطني بعد الحرب التي شهدها لبنان بدءا من العام 1975، وهي وثيقة فرضت معادلة جديدة في التوازن الوطني بفعل التحولات الداخلية والاقليمية. وكان المسيحيون ازاءها امام خيارين: "الممكن او المطلق" كما قال غبطة البطريرك صفير.... على ان لا تبقى كما بقيت في كثير من بنودها، حبرا على ورق!

5- السينودس من اجل لبنان 1993-، 1997 وقد شاءه الحبر الاعظم البابا يوحنا بولس الثاني رافعة تاريخية لمسيحي لبنان ولعلاقتهم بالمسلمين وبمحيطهم العربي، فكانت الوثائق اللبنانية الثلاث التحضيرية:

- الخطوط العريضة. 1993.

- وثيقة العمل. 1995.

- النداء الاخير. 1995.

- ثم توج بالارشاد الرسولي "رجاء جديد للبنان" لقداسة الحبر الاعظم، 1997.

6- المجمع البطريركي الماروني: وهو تنمة واستجابة للارشاد الرسولي (رجاء جديد للبنان)، مع ان الدعوة الى عقده اطلقت منذ العشرينات، وتكتفت في الثمانينات مع الاب يواكيم مبارك. وتجري اعماله التحضيرية منذ مدة، وسيبدأ اجتماعاته في حزيران المقبل 2003.

ولانه يذكر المسيحيين بالمجمع اللبناني، 1736 فهو مجمع يتوخى الاصلاح والتجدد في الكنيسة لكي تكون حاضرة وفاعلة ورائية لدى مؤمنيه وفي عالم اليوم.

الخلاصة

لدى المسيحيين في لبنان هموم حقيقية ولدى المسلمين هو اجس حقيقية ايضا. ولكنهما ليسا من النوعية ذاتها. فهموم المسيحيين هي هموم كيانية وجودية تتعلق بمعنى حياتهم وحريرتهم الشخصية والجماعية في حين ان هو اجس المسلمين هي الى حد كبير هو اجس حقوقية ولا يمكن ان تكون وجودية كيانية لانهم يعيشون في منطقة ذات طابع اسلامي: الاسلام السياسي فيها قاعدة، والمسيحية السياسية فيها شواذ رغم ان الوجود المسيحي في الشرق هو وجود حضاري تاريخي اصيل.

وفي تحليل الاب ميشال الحايك ان هذا "الشاذ" السياسي - الثقافي هو ضرورة حضارية لانه مهماز للقاعدة ومحرك لها، فلا تصاب "بالقعود والتقاعد". وميزة "الشاذ اللبناني" بخلفيته المسيحية انه على صلة بينابيه وقواعده الحضارية في المشرق والعالم بحيث يرفد الثقافة العربية - الاسلامية، بالجددة والحداثة والتطور، اي بمقومات النهضة وهي حقائق تفرض نفسها على تاريخنا المعاصر وليست بحاجة للدليل عليها. لهذا يصح القول انه لا معنى للكيان اللبناني الحر من دون الانسان اللبناني الحر.

ان قراءة متأنية لهموم المسيحيين ومهماتهم ولهواجس المسلمين ومطالبهم وللتجارب التي مرّ بها الجانبان في محطات مفصلية من تاريخ لبنان تؤكد ضرورة صياغة استراتيجية مسيحية تتخطى الاتجاهات الفئوية والحزبية والاقليمية، بل تشكل افقا فكريا ولاهوتيا وفلسفيا ووطنيا لها. استراتيجية لا تهدف الى الصراع مع المسلمين ومع محيطنا العربي، بل على العكس تهدف الى الحوار والتفاهم معهم على قاعدة فعل الايمان بالحياة المشتركة وبالفوائد المشتركة والمصالح المشتركة، وأخذين في الاعتبار القاعدة السوسولوجية القائلة: ان مشكلة الاقلية هي قبل كل شيء مشكلة الاكثريّة!

... وعشية بدء اجتماعات "المجمع البطريركي الماروني" لنصلّ ونفكر ونتأمل ونعمل لكي يلهمنا الروح الى ما فيه خير المسيحيين والمسلمين ولبنان (5).

2003/2/22

هوامش

(1) الهاجس (وجمعه هو اجس) هو كل ما خطر في البال ووقع في القلب. ومعناه هنا: "ما يتمناه المسيحيون ويخشون بالتالي ان لا يتحقق".

(2) همّ (وجمعته هموم) هو ما يفلق ويحزن. ولهذا فضلنا تعبير هموم، في العنوان، على تعبير هواجس، لأن الهموم تطرح المسألة على صعيد فلسفي حياتي شامل متصل بالقلق الوجودي الكياني الذاتي والجماعي لدى المسيحيين.

(3) المهمات هي ما يؤديه الرسول من عمل او سعي انفاذا لدعوة ما *Vocation*.

- (4) الحرية لها اربعة معان من الوجهة الفلسفية وهي:
- وضعية شخص ليس خاضعا للتبعية المطلقة لأي كان.
 - حالة من ليس موقوفا كسجين.
 - امكان التصرف والتفكير والتعبير من دون اكراه.
 - حالة الانسان الذي يتدبر بحسب عقله.

(5) كتبت هذه الورقة بناء على الحاح العديد من ابنائي الطلبة الجامعيين في اكثر من جامعة حول وضعية مسيحيي لبنان، كوني عضوا في لجنة السينودس، وفي المجمع البطريركي الماروني. وشنتها ان تكون "ورقة عمل للنقاش" امام اخوتي الطلبة وسواهم، واني على ثقة ان لديهم الكثير من الافكار والرؤى والتطلعات الجديرة بالاعتبار والاحترام. فهم المدعون قبل غيرهم لصياغة المستقبل لانهم هم بالضبط هذا المستقبل: مستقبل الكنيسة ومستقبل لبنان.

* الدكتور نبيل خليفة باحث في الفكر الجيو - استراتيجي